هل يستوعب «الإخوان» الدرس؟

لا يزال فى إمكان قيادة جماعة «الإخوان المسلمين» البدء فى تصحيح أخطاء توالت خلال الأشهر الخمسة الأخيرة، غير أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بإطلاق مبادرة لشراكة وطنية حقيقية لوقف نزيف الأصوات الذى حدث فى الجولة الأولى للانتخابات الرئاسية. ففى هذه الجولة فقد «الإخوان» أكثر من نصف الأصوات التى حصدوها فى الانتخابات البرلمانية قبل خمسة أشهر فقط. وهذه خسارة فادحة يصعب أن يحجبها فوز د. محمد مرسى بالمركز الأول بفرق طفيف للغاية عن منافسه الأول الفريق أحمد شفيق ووصولهما إلى جولة الإعادة.

فقد حصل مرسى على خمسة ملايين و764 ألف صوت تشمل أكثر من مليون من الأصوات السلفية ذهبت إليه وكانت ضد «الإخوان» فى الانتخابات البرلمانية. فأين ذلك مما حصده «الإخوان» فى الانتخابات البرلمانية حين حصلت قوائم تحالف الحرية والعدالة على ما يقرب من 11 مليون صوت.

ولم يكن هذا التراجع الشديد مفاجئا. بدأت مقدماته فور انتهاء الانتخابات البرلمانية عندما تخلى «الإخوان» عن المنهج التوافقى الذى تبنوه منذ ثورة 25 يناير، وشعروا بالاستغناء فبدوا فى نظر الكثير من الناس راغبين فى الاستئثار بسلطة تمثل حملا ثقيلا وعبئا شديدا لا يمكن لأى طرف أن يحمله منفردا. ولذلك وضعوا أنفسهم فى موضع يُحاسبون فيه

على تدهور الأوضاع وتفاقم مشاكل الناس بالرغم من أنهم لم يسيطروا إلا على البرلمان. وأصبح صعبا عليهم، خصوصا بعد أن تخلوا عن حلفائهم وكفوا عن الاستماع إلى غيرهم، التصدى لهجوم تصاعد عليهم وغذته أخطاؤهم فى إدارة ملف الجمعية التأسيسية للدستور والتراجع عن التزامهم السابق بعدم خوض الانتخابات الرئاسية.

وكانت معضلة «الإخوان» الجوهرية هى عدم إدراك أن مصر فى أشد الحاجة إلى قيادة تجمع القوى الوطنية وتقوم على الشراكة وتوزيع المسؤولية وليس إلى سلطة تستأثر بالحكم وتتحمل وحدها هذه المسؤولية التى ينوء بها كاهل أى طرف مهما كان.

وبالرغم من أن «الإخوان» وحزبهم لم يتحملوا مسؤولية السلطة التنفيذية، فقد أعطى منهجهم انطباعا بأنهم المسؤولون عن عدم حل مشاكل الناس، ووجهت طريقتهم فى التعامل مع القوى الأخرى رسالة أثارت قلق قطاع واسع من الرأى العام تفيد بأنهم يسعون إلى الاستئثار بالسلطة.

وكان لهذه الرسالة صدى سلبى لدى كثير ممن ساندوهم فى الانتخابات البرلمانية واقترعوا لصالحهم، فحجبوا أصواتهم عن د. محمد مرسى فى الجولة الأولى للانتخابات الرئاسية.

وظهر أثر ذلك واضحا فى خسارتهم الكبيرة فى كثير من معاقلهم الأساسية فى منطقة الدلتا مثل محافظات الشرقية والغربية والدقهلية والقليوبية، حيث تصدر الفريق أحمد شفيق فى هذه المحافظات وبفرق كبير جدا عن د. مرسى فى بعضها.

فقد تفوق شفيق على مرسى بما يقرب من مائة ألف صوت فى محافظة الشرقية «627 ألفا مقابل 536 ألفا»، وفى محافظة القليوبية «395 ألفا مقابل 302 ألف». وجاء الفرق أكبر بكثير وحاملا دلالة خطيرة على أداء «الإخوان» السياسى فى محافظات أخرى. ففى محافظة الغربية مثلا كان الفرق 176 ألف صوت «421 ألفا لشفيق مقابل 245 ألفا لمرسى». وفى المنوفية وصل الفرق إلى 383 ألف صوت لمصلحة شفيق «586 ألفا مقابل 203 آلاف».

وهذه هى المحافظات التى اكتسحها «الإخوان» فى الانتخابات البرلمانية. ففى محافظة الشرقية، على سبيل المثال فقط، حصلوا على 18 مقعدا من أصل 30 بنسبة 60 فى المائة من إجمالى المقاعد. وقد انخفضت هذه النسبة إلى نحو 27 فى المائة فقط فى الانتخابات الرئاسية.

وفى الإسكندرية أيضا، حيث أحد معاقلهم الأساسية حصل حمدين صباحى على أكثر من ضعف الأصوات التى نالها مرسى «602 ألف مقابل 291 ألفا» رغم أنهم حصدوا نصف مقاعدها فى الانتخابات البرلمانية «12 من أصل 24 مقعدا»، وفى ظل منافسة ضارية ضد السلفيين الذين يتركزون بدورهم فى هذه المحافظة. وهذا هو ما يُعرف بالتصويت العقابى الذى أفقد «الإخوان» ما يقرب من ستة ملايين صوت خلال خمسة أشهر أى بمعدل خسارة مليون صوت كل شهر.

ولولا أن «الإخوان» تمكنوا من المحافظة على رصيدهم فى محافظات جنوب مصر حيث يحدث التغيير ببطء وعلى آماد زمنية أطول، ما تمكن مرشحهم من تصدر الجولة الأولى متساويا تقريبا مع منافسه فى الإعادة أحمد شفيق.

وهذا درس جدٌّ عظيم لأنه من النوع الذى تؤثر طريقة التعامل معه فى مسار التاريخ. ولذلك فالأرجح أن استيعاب هذا الدرس من عدمه، واليوم وليس غداً، سيحدد ليس فقط نتائج انتخابات الإعادة بل مستقبل مصر لسنوات قادمة.